الميت الحي

« لماذا تطلبن الحى بين الأموات ؟ ليس هو ههنا لكنه قام » (لوقا 24 : 6,5)

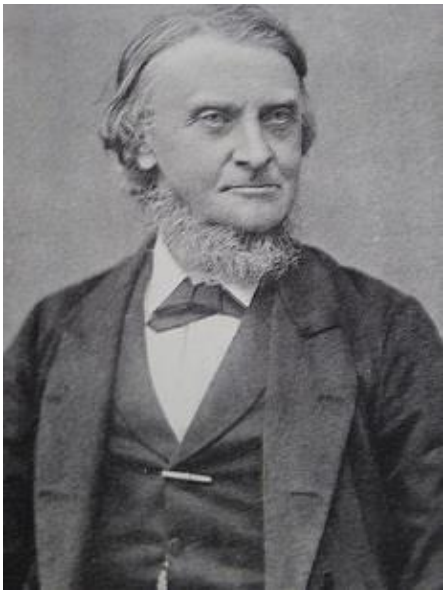

Alexander Maclaren (11 February 1826 – 5 May 1910)

القاها أمير المفسرين : الكسندر مكلارن (١٩١٠ – 1826)

(وأمير المفسرين) ، هذا هو لقب ألكسندر مكلارن ، وهو الذي يدلي بحق بهذا الاسم : كان ابن أحد تجار مدينة جلاسجو. ولد في فبراير سنة ١٨٢٦ وتعلم في كلية معمدانية في لندن وفي سنة ١٨٤٦ دخل الخدمة في كنيسة معمدانية بسوثهامبتون ، ثم انتقل الى منشستر حتى بقى قرابة نصف قرن يعظ من على من هذه الكنيسة .وفي سنة ١٩٠٨ أتم خمسين عاما في الخدمة . و قد كان باحثا مدققا في الكتاب المقدس لا واعظا من الجرائد . و قد كان كالغواص الماهر يطلع بالجواهر المدفونة في قاع البحر وقد جمعت تفسيراته في نحو ثلاثين مجلدا

ليس في مقدورنا أن نصف مقدار الوحشة والألم الذين خيما على التلاميذ في الفترة الواقعة بين موت المسيح وقيامته . لكن القبر لم يكن معطلا لعمل السيد ، بل كان هو الطريق الضيق الموصل الى الفوز المبين والمجد الباهى لاتمام ذلك العمل الذي بدأ بإقامة ابن الأرملة ولعازر . ومع هذا فان التلاميذ لم يكونوا ليدركوا هذا ، بل بالعكس نرى الحيرة ملكت شعورهم أكثر عندما استرجعوا معجزاته في انقاذ الآخرين من مخالب الموت والقبر ودخوله هو فيه حتى لقد ساورتهم الهوامس : «خلص آخرين وأما نفسه فما قدر ان يخلصها . لذا يطلع علينا صبح حق جديد يفيض في قلوبنا بالشكر العميق اذ نسترجع منظر المريمات الباكيات ينظرن إلى الملاكين جالسين كالكروبين يظللان كرسي الرحمة - انما لكفارة أفضل - وهما يسمعان آية مو ضوعنا : لماذا تطلبن الحب بين الأموات ؟ « ليس هو ههنا لكنه قام » ومع أن الكلمات المتضمنة تشير إلى حادث تاريخى بالذات ، الا انه يمكننا أن نجمع منها بعض الفوائد ونطبقها على من سبقونا إلى

الدار الأمين من أعزائنا الأتقياء . كلما نذهب الى قبر مفتوح يساورنا الحزن على من نحبهم ، وعندما تثقل قلوبنا بآلام الموت في أي شكل فإننا نستطيع أن نبصر بجلاء - اذا ما كانت عيوننا مكتحلة بنور السماء - وأن نسمع بوضوح - اذا ما كانت آذاننا متطهرة من شوائب الحياة وضوضائها ذات الرسالة عن الذين سبقونا : لماذا تطلبون الأحياء بين المقابر ؟ ليسوا هم ههنا لكنهم قاموا كما قال . ومع أن هذه الكلمات قديمة الا انها تأتي الينا بقوة جديدة على أحوالنا الراهنة . فدعونا نتأمل معا برهة أو برهتين.

أولا : الأموات أحياء:

لا تغتر بظواهر اللفظ لأن ذلك كثيرا ما يضللنا ، لأن الأموات والأحياء ليست أسماء لطبقتين متضادتين ، وليس من أحد ميت حسب مرمى اللفظ لأن الأموات هم الاحياء الذين ماتوا ، ومع أنهم مائتون هم أيضا أحياء لأنهم بعد الموت عاشوا انما بحالة أكمل لأنهم مع الله . آه ! كم يتجلى لنا هذا الحق في كثير من الأحيان ونعرف أن الأجيال السالفة ، الذين عاشوا على ظهر هذه البسيطة ورقدوا واستوطنوا عالم السكوت ، بل صاروا نسيا منسيا ، إن هم إلا أحياء عند ربهم . بل هم مالكون لقواهم وحواسهم إنما بصورة أمجد ، شاعرون في كل أجزاء كيانهم بأن الحياة التي دبت قوتها فيهم بعد مفارقة الجسد ليست أقل شأنا وعظمة من الحياة الدنيا . فالأموات أحياء بعد مماتهم بل أحياء إلى الأبد . ولا جدال في هذا الحق كما تعلنه لنا كلمة الله.

لا أنكر أنه من وجهة نظر الطبيعة ، منطقة الأموات هي : « أرض ظلام مثل دجي ظل الموت وبلا ترتيب واشراقها كالدجى ». وهنا تفشل الموارد البشرية ، بل يقع الفكر تحت غيبوبة مترنحا في ظلمة الشك ، بل الشعور والاختبار يصمتان صمتا والحواس مجردة تصيح صيحة القنوط اذا ما أبصرت الموت قائلة : انه النهاية ، هو الياء الأخيرة. واذا التمسنا شهادة تجلو لنا الحقيقة وتكشف اسرار بيت الحبس فلا نجد أمامنا الا شفاها ذابلة لا تقوى على تأديتها لكن موت المسيح التاريخي و قيامته والكلمات التي نطق بها عند موته » اليوم تكون معي في الفردوس »، وشخصيته الكاملة التي قام بها من الأموات ، وظهوره لتلاميذه أربعين يوما قبل صعوده ، كل هذه تدل على وجود ضيف المحبة القديم حتى بعد الموت واستمرار كلامه مع تلاميذه . وهذه جميعها تبدد كل سحابة للشك ، بل تنفخ في الرجاء الذي يكاد يخمد نار القوة وتركز يقيننا على السند التاريخي ان امبراطورية الموت إنما هي جزئية في مداها ودوامها اذا اقتنعنا بهذا أمكننا أن نعيد النظر بعينين جديدتين على الملابسات الظاهرة للموت ، فيتضح لنا تسرع الحس في اصدار حكمه بأن الموت هو الحد النهائي للحياة . لأنه لا يوجد برهان من المشاهدات المحيطة بنا مما يقع تحت نظرنا يدعنا نؤكد أن للموت بكل آلامه وحشرجاته سلطانا على النفس بتاتا . نعم ، الروح تنطلق محلقة إلى جوها الأعلى ، والنزيل الذي أوشك على الرحيل من داره يقفل شبابيك بيته قبيل خروجه ، لكن ماذا هناك من توقف عن الاتصال

بالعالم الخارجي ؟ ولماذا تمسك اليد التي فارقها النبض فلا ترد عليك مسكتها ؟ ولماذا تهمس بنبراتك اللطيفة لكي تسترعى اهتمام نفس هوت تحت ضلوع الموت الباردة فلا تظفر بجواب ؟ ولماذا تنظر بعين تسكب هتون الدمع علك تحظى بيرق نظرة واحدة تلكما العينين المطبقتين فلا تعود ترى لهما بريقا ؟.

أجل ! هل في ذلك برهان على أن الروح شريكة لهذا الوهن والصمت ؟ اليست النفس تبني استحكاماتها اذ ذاك واذا ما تقهقرت من مراكز الطليعة فما ذلك الا لتتحصن في خطوطها الداخلية ، في قلعتها التي لا تمس ؟ اليس أن الأمر لا يتعدى أن رقدة الحياة قاربت النهاية ، وأن عين النفس التي تحركت لتستيقظ ابتدأت تنفتح على نور عالم الحقيقة ؟ وأن أشباح الحلم والأصوات الخيالية ابتدات تزول ؟ اليس لأن الإنسان باجتيازه الموت يصير بالتمام كما هو في حالة الموت ؟ ميتا عن الخطية ، ميتا عن العالم ليكون حيا لله ، حيا مع الله ؟ لذا يمكننا أن نتطلع إلى نهاية الحياة وأقول : أنه لأمر سهل، فالموت لا يقطع إلا أهداب ثوب الحياة أما أنا فلم يمسنى اطلاقاً و في كل عمله لم يعمل شيئا الا أنه دار حول القشرة الخارجية فقط أما اللب فلم يصل اليه . وهو لا يقتلع إلا الغلاف أما النفس فإنها تصعد لا تمسها يده . حينئذ تسقط أغلال الموت عن ذراعي النفس الخالدة ، وتنفض عن جناحيها غبار الموت . أما الجسد فيجوز عليه الحكم السماوي : « لأنك تراب وإلى تراب تعود ». فالموت ما هو الا برزخ ضيق تقف عليه النفس حينا فتبصر من خلفها الماضي وتمد بصرها إلى سعة بحر المستقبل المترامي الأطراف، واوقيانوسه الذي لا شطوط اله وعليه مجد الله يلمع بسناء وتتردد في أصدائه نبراته الجميلة .

كذا ليس الموت سوى ممر سوى دهليز، والقبر له باب آخر من الداخل ، لأننا ندحرج الحجر على بابه الخارجي ونرجع ظانين أننا تركنا اعزاءنا هناك الى يوم القيامة . ولكن حينما نغلق بابه المتصل بالأرض ، سرعان ما يفتح بابه الداخلي المتصل بالسماء والله ينادى ذويه قائلا : « هلم ادخل مخادعك واغلق ابوابك ... حتى يعبر الغضب ». فالموت هو عابر وقتي وظلال متسببة عن نور ، بل هو موت المائت لتحرير الحياة من المائت . لذا يا اخوتى نستطيع أن نأخذ كلمات آيتنا ونذهب بها إلى أي قبر لعزيز لنا ونقول لأنفسنا « ليس هو ههنا . مجدا لله ! ليس هو ههنا ، بل حي مع السيد هناك »

كثيرا ما نفكر في القبر، ويا للأسف ، ولكن قلما نفكر في العرش والمجد ! تطلع الى فوق الى ما وراء ظل الموت ، إلى ما وراء الخطية الى ما وراء البعد عن الله ، ثم حدق النظر في نور الحياة الأبدية التي لا تغيب شمسها عن عرش الكون ، وانظر الى الأحياء الذين ماتوا في المسيح مغمورين بفيض نوره .أن الباحث في العهد الجديد ليرى أن كلمة «الموت» قلما تستعمل لإنفصال الجسد عن الروح ، لكن نجد الفاظا أخرى تستعمل له كأن حقيقة الموت لا تزال موجودة ، لكن ما يجعله موتا قد تلاشي لأن المسيح آباد سلطان الموت فقد يموت رجلان ويدفنان في قبر واحد، لكن يكتب عن الواحد : « من آمن بالمسيح فلن يموت إلى الأبد »، بينما الآخر - وقد جاز في نفس العملية والشكل وكل شيء يقال عنه:

»هناك الموت بعينه ، كما قصده الله جزاء وفاقا وقصاصاً عادلاً لخطية الإنسان ». أجل ، أن اتفق الاثنان في الحالة الظاهرة فهما متناقضـــان في الحالة الداخلية ، لأن المؤمنين مع أنهم يجتازون نفس الاختبار والألم والرحيل ان كان بطيئا أو بمركبة نارية تختطفهم فانهم ليســوا أحياء فحسب بل لم يموتوا . اعرفت اذن معنى الموت في قوة فاعليته ؟ انه لا يعني ظلا فقط ، وليس هو انفصال الجسد عن النفس ، بل هو انفصال النفس عن الحياة لأنها انفصلت عن الله.

ثانيا : حياة افضل:

هذه الآية تبين لنا حقيقة أخرى جديرة بالتأمل ، وهي أن الذين ماتوا يحيون حياة أفضـــل من الحياة التي نحياها، هنا . ولســت اريد الدخول في تفاصــيل الأســس الكتابية عن عدم انقطاع الوجود لنفس الإنسان في الفترة بين الموت والقيامة :« نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب » , « اليوم تكون معي في الفردوس »، فهذه اذا لم يوجد في الكتاب غيرها فهي كافية لأن تقنعنا بمقاصد الله ليعرفنا عن استكشاف ما في بطن المستقبل ، ولو انه لم يرد لنا إلا الاكتفاء بما وضحه ويستر ما بقي عن عيوننا . لكني أقول أن حالة القديسين الراحلين هي أكمل وانبل مما كانوا على الأرض . فهم الآن - مهما تكن تفاصيل حالتهم - ارواح ابرار مكملين .. نعم ، أن أجسادهم لم تتمجد بعد ، ولكن أرواحهم البارة تكون جزء من المحفل المبارك الذي رأسه المسيح .

لكن بأي شيء صارت حياتهم أفضل الآن ؟أولا أنهم في شركة وثيقة المسيح ، ثم انهم فارقوا جسد الضعف هذا جسد الهوان والفساد . ثم استراحوا من تعبهم وعنائهم وهمومهم ، وأخيرا قد عبروا بحر الموت وتركوه وراءهم فلا يهددهم برعبه فيما بعد. هذه بعض عناصـــر حياة القديسين المائتين . فهم الآن أقرب إلى حضرة المسيح وقد أعتقوا من الجسد مصدر الضعف وحاجز المعرفة الكاملة ، وجاذب نزعات النفس العلوية إلى رأس الخطية ومبعث الألم . لقد تحرروا من الألم والفشـــل والتعب والجهاد واللعنة ، وأطلق ســـراحهم من قيود خوف الموت الذى وان كانت شـــوكته قد اقتلعت إلا انه كان يرعبهم ، فهم ينظرون بابتســـامة الرضـــا الى الشبح الذي كان يسيج طريقهم واقفا كمارد جبار قاطعا عليهم السبيل في ايام حياتهم ولكنهم لما وصـــلوا اليه راوا كيف أنه كان حقيراً مهاناً .فان كانت هذه بعض مزايا الراقدين بيســـوع لهم هذه المعرفة والحكمة والمحبة والقداســـة والنشـــاط والراحة ، واذا ما انقطع ضـــجيج الحياة، وكفت الضـــوضـــاء والجلبة حولنا ، وتســـربل ذلك الوجه الذى ألقينا عليه النظرة الأخيرة مجداً وضـــياء ، وانتفت عنه خطوط الألم وغضـــن الأحزان والأمراض ، فأشـــرق ببهاء وجمال ، فطوبى للأموات !

ثالثا : حياة أكمل:

هذا ما نلاحظه أخيرا لأن كمال الإنسان هو الجسد والنفس والروح اذ هذا هو الانسان كما خلقه الله ، فالروح المكمل و النفس المكملة بدون الحياة الجســـمانية ان هي إلا جزء من كل . لأن الأرواح
المكملة الساكنة في نور أمجاد السماء الساكنة في الله ، الآن تقف منتظرة ، تمد يدها ، لا اقول متشوقة ، بل متوقعة بالإيمان والرجاء ، لكى يلبس هذا المائت عدم موت .. ليس لدينا ما نقوله عما سيكون عليه الجسم ولا الفوارق أو الصفات المميزة بين مسكننا الأرضي الذي هو بيت خيمتنا ، وبين الجسد الممجد الذي سنلبسه ولكننا نعلم هذا انك اذا محوت كل أثر للضعف الملازم لأجسادنا أمكنك أن تُكَوِن ولو فكرة ضئيلة عن الجسد الممجد . يزرع في هوان و فساد وضعف ويقام في مجد وعدم فساد وقوة . بل أكثر من هذا يزرع جسماً طبيعيا حيوانيا مرتبطا بهذا العالم المادي ، ويقام جسماً روحانياً خادماً متأهباً لتنفيذ مطالب الروح الساكن فيه العامل فيه الكامل في فدائه.

فلماذا تطلبون الحي بين الأموات ؟ الا تعلمون أن الله « يعطي حبيبه نوما »؟ وفي تلك الهجعة المباركة تتجمع الحقائق وليس الأحلام وتملأ الأرواح الواعية والقلوب السعيدة بالبركة والشركة . واذا ما رقدت في أذرع المسيح تستريح إلى أن يتم عدد مختاريه وفي الوقت المعين يبزغ الفجر الأبدى واليد التي حفظتها في نومها تلمسها لتوقظها فاذا ما هبت من رقادها تلبسها صورة جسد مجده ، فننظر إلى وجهه المبارك اللامع بالمحبة والنور والجمال فتدوى ترنيمات السرور، حينما تلامس أشعة هذا النور الطالع الذي لا تغيب شمسه وتطلع على رؤوسهم الممجدة الخالدة فتنشد انشودة النصر هاتفة « اشبع اذا استيقظت بشبهك »

عظة للواعظ الشهير اليكساندر مكلارن منقولة مع التعديل والتنسيق

من كتاب أشهر المواعظ الرب يستخدمها لمجد اسمه.